مجلة العمدة في اللسانيات وتحليل الخطاب
Issn:2570-0058/E-issn:1969-2676
https://www.asjp.cerist.dz/en/PresentationRevue/485
ASJP Algerian Scientific Journal Platform

المجلد: 07 العدد: 02 جوان (2023) ص507-521

القصيدة ومقاومة بياض سرديّة التّاريخ: قراءة في قصيدة "فليحضر التّاريخ" لمريد البرغوثي

The Poem and the Resistance to White-based Narrative of History: Analysis of the Poem: "Let History Be Present" by "Mourid Al-Barghouthi"

د. جموعي سعدي*

جامعة محمّد الشريف مساعدية، سوق أهراس (الجزائر)

d.saadi@univ-soukahras.dz

معلومات المقال

تاريخ الارسال: 2023/04/26

تاريخ القبول: 2023/05/24

الكلمات المفتاحية:

- ✓ الهيمنة
- ✓ المقاومة
- ✓ الشّعر
- ✓ التّاريخ
- ✓ التمركز

الملخص:

لطالما ارتبط الشّعر بالمقاومة، ونهضت القصيدة تعبيراً عن المواجهة والصّمود، وغَدَتْ شكلاً من أشكال النّضال، وصورةً من صور الدّفاع عن الكرامة الانسانيّة، ونبذ الاضطهاد والهيمنة، والنّفي والتهميش، واضطلعت بمهمّة تحرير الخيال والمخيال من ربقة الصّور النمطيّة؛ يهدف هذا البحث إلى بيان كيفيات انخراط قصيدة "فليحضر التّاريخ" لمريد البرغوثي، في فعل المقاومة، ومساءلة التّاريخ، وتفكيك أساطيره ، وتنقيته من شوائب التمركز الغربي، والرّغبات الكولونياليّة، وتفنيد السّردية التّاريخيّة القائمة على تركيز الاهتمام على التّواريخ الغربيّة، في مقابل طمس حيويّة تواريخ الأمم الأخرى. وتعنى القصيدة بكتابة التواريخ المنسيّة، والدّفع بها إلى الواجهة، وتعزيز موقعها، بقدر عنايتها بمجابهة أشكال الطّمس والتغييب الممنهجة في التّواريخ والمرويات الكولونياليّة.

Article info

Received 26/04/2023

Accepted 24/05/2023

Keywords:

- ✓ *Centralization*
- ✓ *hegemony*
- ✓ *History*
- ✓ *Poetry*
- ✓ *resistance*

Abstract:

Poetry has always been linked to resistance, in this regard, the poem stands as the expression of confrontation, of resilience, and it has become a form of activism and one of the images of the defense of human dignity, of the refusal of repression and hegemony, of exile and marginalization. The poem has to free the imagination and imaginary from stereotypes. This study aims to feature the processes in which this poem functions as an act of resistance and as an interrogation of History to deconstruct its mythology, the misconducts of Western-centrism, and colonial desires. It is also a question of disproving the historical narrative based on the excessive importance given to Western historiography in the face of the cover-up of the historical dynamics of other

*المؤلف المرسل

nations. The poem focuses, as well, on the recall of elapsed History that must be rehabilitated and strengthened. Besides, it is attentive to the opposition of the forms of concealment and methodical marginalization practiced by historiographies and colonial narratives.

. مقدمة:

لعلّ المقام يقتضي، قبل الشّروع في بسط مفاصل هذا البحث، وفي عرض الأسس والمنطلقات النّظريّة، والخلفيات الإبستيمولوجيّة التي ينهض عليها؛ تحديد دلالات البياض المقصود في العنوان، وفي بيان ذلك، نقول إنّ مصطلح "البياض" المقصود هنا، من دون شكّ وثيق الصلّة بمصطلح العرق الأبيض، والرّجل الأبيض. وإذا كانت الإثنية في استخداماتها المعاصرة، تعني اشتراك فئة أو جماعة بشريّة في الأصل السلفي (النّسب)، والسّمات الثّقافية، وامتلاكها حسّاً بالاختلاف -بوصفها جماعة أو شعباً- عن مجتمع أكبر. (أشكروفت، دراسات ما بعد الكولونيالية، المفاهيم الرئيسية، 2010، صفحة 154)، فهي تتقاطع في بعض أوجهها كما دعائمها مع مفهوم "العرق"، وهذا ما يحيل على ظاهرة التمركز الإثني *ethnocentrisme*، والتي تعني التمركز حول الخصائص الثّقافيّة واللّغويّة، والرّوابط التّاريخيّة، والقيم المشتركة لجماعة بشرية ما؛ ولعلّ هذا ما يجعل التمركز الإثني ركيزةً من أهمّ ركائز أشكال أعمّ، وأكثر شموليّة من التمركز، مثل "المركزيّة الغربيّة"، ووجهاً من أجلى وجوهها.

ولسائل أن يسأل، ما علاقة القصيدة بأسئلة الإثنيّة والتحيّز والمقاومة؟ وما لها ولمنطلقات كتابة التّاريخ؟ ولارتهان السّرديّة التّاريخيّة للمرجعيات الغربيّة، وتركيز اهتمامها على التّواريخ الغربيّة؟ ونهوضها مخترقةً بأشكال الطّمس والنّسيان والعمى، وعدم الاحتفاء بتواريخ الأمم الأخرى، والاسهامات الشّعبية والفرديّة رغم حيويتها؟

نقول في الإجابة عن ذلك، بأنّ الشّعر لم يتملّص يوماً من طرح الأسئلة الوجوديّة، والنّظر في القضايا المصيرية، بل لطالما انخرط في مسعى مناقشتها، ومحاورة الأسئلة والإشكالات المتفرّعة عنها؛ محاولاً تقديم الإجابة عنها. غير أنّ طريقة الفنّ في طرح مشكلات الوجود والإنسان والهوية والمصير، وغيرها، تختلف عن طريقة طرح هذه المشكلات في غيره من الحقول والعلوم والمعارف، كما أنّ إجابته عنها مختلفة. والإجابة عن هذه الأسئلة، وإنْ كانت تتمّ بطريقة الحدس، أو الكشف، وتعوّل على طاقات النّبوءة والاستشراف في الفنّ، لا بطريقة النّظر العلمي، والمنطق التجريبي، والتصوّر الوضعي؛ فإنّها تظلّ إسهاماً في حلحلة هذه المشاكل والمآزق، وخطوة في سبيل الخروج من سجنها، واقتراح مواقع وزوايا، ووجهات نظر جديدة في النّظر إليها؛ ولعلّ هذا المسعى، في حدّ ذاته إسهام له قيمته القصوى.

وإذا كانت الخبرات والنّماذج الإدراكيّة، ورؤى العالم الخاصّة بثلاثة أرباع سكّان العالم، قد تشكّلت في ظلّ التّجربة الاستعماريّة، وتأثّرت بأنساقها ومنظوماتها، كما يلحظ مؤلّفو كتاب "الرّد بالكتابة"؛ فإنّ آداب ما بعد الكولونياليّة -ومختلف الفنون التي تنطلق من المنظور نفسه- قد شكّلت واحداً من أهمّ طرق التعبير عن ذلك الواقع، ونظم تمثيل تلك التجربة. (أشكروفت، الرد بالكتابة، 2006، صفحة 15)

ومن دون شكّ فإنّه يمكننا تنزيل نص "فليحضر التّاريخ"، لمريد البرغوثي، كما ديوان الشّاعر بكامله، وكثير من نصوصه، ضمن بوتقة آداب ما بعد الكولونياليّة، بما هي آداب تنهض على تمثيل التّجربة الاستعماريّة، بمختلف أبعادها، مقترحةً سبيلاً لمقاومة هيمنة النّماذج وأشكال التّمثيل، والرّؤى الغربيّة، والمخيال الكولونيالي على ذاكرة الآداب والفنون والتّاريخ، وساعية إلى بلورة استراتيجيّات تحرير الخيال والمخيال، وتصفية استعمار العقل.

وفي الأوراق الآتية محاولة لقراءة القصيدة في ضوء هذه الافتراضات، وتحليلها تعويلاً على هذه الخلفيات والمنطلقات.

01: مهاد نظري وإشكالي

ممّا لاشكّ فيه أنّ "علم التّاريخ" الذي تصاعدت أهمّيته كحقل معرفي، في القرن الـ19، قد نهض على فلسفة التقدّم، وعلى مقولة الزّمن التقدّمي، مفيداً من فلسفة التنوير، وإرث الثّورتين العلمية والصناعيّة، وتعايش مع أحلام الإنسان الحديث بالسّيطرة على الطّبيعة، وترويض تمرّدها، وفكّ مغاليق المجهول، واخضاعه للتفسير العلمي، واستكشاف نظام الطّبيعة، وفهم سديمها الغامض، وتسييد العقل عليها. (درّاج، 2004، الصفحات 05-11)

وبذلك فقد غدت فكرة، بل فلسفة التقدّم، التي هي صنو التّاريخ، سرديّة متفائلة، وحكاية طوباوية، ويوتوبيا حالمة، تؤمن بأنّ مسيرة التّاريخ تقدّميّة، وأنّ نهايته مظفّرة، وبأنّ خطّ سير التّاريخ يعني انتقالاً من اللاّمعقول إلى المعقول، وهذا الانتقال لا يقبل بالانقلاب والارتداد عنه، وهذا ما جعل للتّاريخ في المحصّلة شكلاً وحيداً وصيغة متفرّدة. (درّاج، 2004، صفحة 11) هي الصّيغة الغربيّة/ الأوروبيّة، وكما يؤكّد تيري إيغلتون: فإنّ للتّاريخ منطقه الخاص، وهو بصورة عامّة أحادي الخطّ، وتقدّمي، وحتميّ. (إيغلتون، 2002، صفحة 45)

وقد هيمن على فلسفة التّاريخ هذا المنظور الذي يؤمن بالمسيرة التقدّمية، والحركة الدّؤوبة نحو الكمال، والنهايات المظفّرة للتّاريخ، والوصول إلى ذرى المجتمع السّعيد؛ فـ«اعتماداً على فكرة التقدّم، التي قاست الزّمن الكوني بالزّمن الأوروبي المنتصر... تكون حركة التّاريخ حركة تقدّمه، ويصير التقدّم صنو التّاريخ وروحاً له. وعن وحدة التقدّم والتّاريخ صدرت تعابير متفائلة، مثل "عدالة التّاريخ"، التي تفصل بين الخطأ والصّواب، و"محكمة التّاريخ"، التي تنصر الصّالح وتعاقب نقيضه، و"حقيقة التّاريخ"، حيث العدل وتقدّم التّاريخ وجهان لعملة واحدة. تشخصن مقولات الصّلاح والصّواب والعدل التّاريخ، ويغدو تاريخاً عاقلاً، يعاند الشّاذ والمريض ويمضي إلى مصبّه الذّهبي.» (درّاج، 2004، صفحة 10)

غير أنّ هذا المنظور السّالف، الذي يؤمن بغاية سامية للتّاريخ ومسيرته، ويطمئنّ لمنطقه، ويتفاءل بنهاية سعيدة لمسار تقدّمه، ويَعْتَدُّ بـ«زمن أوروبي ينتج روايةً مسيطرةً.» (درّاج، 2004، صفحة 05)؛ لم يكن المنظور الوحيد والمتسيّد في النّظر إلى التّاريخ، بل بَزَغَ إلى الوجود ارتيابٌ ما بعد حداثي من التّاريخ، نهض على التشكيك في غائيّة التّاريخ، والتوجّس من مسيرته التقدّميّة، والتبرّم بوعوده الحالمة، ونهاياته الطّوباويّة؛ فثمّة: «نزوع في ما بعد الحداثة يرى إلى التّاريخ بوصفه أمراً قلّباً على نحو دائم، ومتعدّداً ومفتوح النّهاية... وبوصفه مجموعة من الأحوال أو الانقطاعات التي لا يمكن أنْ تصاغ في سرد واحد موحّد.» (إيغلتون، 2002، صفحة 46)

وإذا كان علم التّاريخ يصوغ الأحكام والفرضيّات تعويلاً على النّظر في الوقائع والقياس عليها، بما يضمن له الموضوعيّة، والحياد؛ فإنّه كان يجمع إلى ذلك "حكاية" ضروريّة، تعمل على لملمة أشتات الأحداث والوقائع، ونسجها في بناء متجانس، ولعلّ ذلك ما جعل مؤرّخاً مثل "ر. ج. كولنجوود" يخلص في كتابه "فكرة التّاريخ" إلى الحديث عن المؤرّخ الرّوائي، ويجعل من الخيال عنصراً مشتركا بين المؤرّخ والرّوائي. (درّاج، التّاريخ وصعود الرّواية، 2002، صفحة 139، 140)؛ فقد كان المؤرّخ يعيد: «بناء الحكاية، محاوراً الوقائع الظّاهرة ومستنبطاً الوقائع الغائبة، منتهياً إلى تفسير ومقترباً من معنى، قالت به الحكاية المفسّرة.» (درّاج، التّاريخ وصعود الرّواية، 2002، صفحة 140) ولعلّ حضور "الحكاية" التي تنهض على الخيال في صلب "الكتابة التّاريخيّة"، هي ما جعلت "فيصل درّاج" يجزم بأنّ التّاريخ كان: «ولا يزال علماً جليلاً يفسّر ويعلّل وينطق ماضياً سحيقاً، وراوياً غريب الصّوت مفتوناً بحكايات الولادة والاضمحلال. ولم يغيّر تطوّر التّاريخ من القران الغريب بين قول حكيم وحكاية مؤسّية.» (درّاج، التّاريخ وصعود الرّواية، 2002، صفحة 139) وهذا ما يقرّب في النّهاية بين جوهر الإبداع الأدبي، والكتابة التّاريخيّة، ويوحّد، بل يماهي بين غاياتهما.

وإذا كان يمكن اعتبار كتاب **"هايدن وايت"** "تاريخ التاريخ: المخيّلة التاريخية في أوروبا القرن التاسع عشر"؛ أوّل وأهمّ: «عمل في تاريخ التأريخ يركّز على الكتابة التاريخيّة بوصفها كتابةً؛ ما يجرّد التّاريخ من مكانته كأساسٍ وطيدٍ للحقيقة الواقعيّة،

ويعلي من شأن السّرد بوصفه جوهر التاريخيّة، ويحدّد مدى الزّيف في كلّ تمييز بن التاريخ والأيديولوجيا على أساس علميّة مزعومة تُنسب إلى الأول.» (وايت، 2016، صفحة 127)؛ فإنّ إعادة التفكير في المعرفة التّاريخيّة، ومساءلة التّفكير التّاريخي، قد غدا تقليداً واضحاً، ومنحى بارزاً في كثير من الكتابات، التي انكبّت على مراجعة خطاب التّاريخ؛ فقد: «طرح المفكرون الأوروبيون خارج بريطانيا -من فاليري *Paul Valéry* وهايدغر *Martin Heidegger* إلى سارتر *Jean-Paul Sartre* وليفي ستروس *Claude Lévi-Strauss* وميشيل فوكو *Michel Foucault*- شكوكاً جدّيةً حول القيمة التي يمكن أنْ تكون لوعيٍ "تاريخيٍّ" على وجه التّحديد، وشدّدوا على الطابع التّخييلي القصصي لضروب إعادة البناء التاريخيّة، وتحدّوا ادعاء التاريخ أنّه يحتلّ مكاناً بين العلوم.» (وايت، 2016، صفحة 128)

وبما أنّ التّاريخ ينهض على الحكاية، ويستثمر طاقات الخيال، في سبيل إعادة بناء الأحداث، ونسج حبكتها، وترميم تصدّعاتها؛ فقد عملت السّرديّة التّاريخيّة -بما هي واحدة من المرويات الكبرى- على استبناء وسياسة المخيال البشري/ الإنساني، وتوجيهه وإدارته وفق رغائبها. وقد كانت هذه السّرديّة دون شكّ أسيرة نزعة تمركز أوروبيّة: «مقنّعة في الدّراسة الأدبيّة بمفاهيم مثل العالميّة الأدبيّة، وفي التّاريخ بالتفسيرات الجازمة التي كتبت من وجهة نظر المنتصرين... وممارسات أخرى ثقافيّة واجتماعيّة غربيّة عديدة، زُعِم، أو افتُرِض، أنّها ترتكز على مجموعة من القيم الموضوعيّة العالميّة.» (أشكروفت، 2010، صفحة 165، 166)

وتبعاً لذلك فقد خضعت السّرديّة التّاريخيّة لأشكال التّسييس، مثلها مثل غيرها من السّرديات/ المرويات الكبرى؛ ولعلّ دليل ذلك، هو ما تَنْضَح به تلك السّردية من أشكال القمع والإقصاء، وما يطفح من مسامّها من نسيان وعمى، علاوةً على ارتهانها للافتراضات التّاريخيّة والعرقيّة، والثّقافيّة الغربيّة، والتزامها بتقاليد الخطاب الكولونيالي، وصدورها عن مخياله المؤسّس.

02: التّاريخ والذّاكرة والنّسيان

لئن كان الأصل في التّاريخ أنّه ينهض على الذّاكرة والاستذكار، والتسجيل والتوثيق، وينتصب لمقاومة النّسيان والتّلاشي والاندثار؛ فإنّ المفارقة تتأتّى من تحوّله إلى مجالٍ لممارسة التغييب، والطّمس والنّسيان. ولعلّ واحدةً من أهمّ نتائج وتبعات التجربة الاستعماريّة، قد تمثّلت وفق ما يسجّل "عبد الله إبراهيم"، في: «تدمير كثير من المأثورات الثّقافية الأصليّة، وتخريب الذّاكرة التّاريخيّة للشّعوب المستعمرة، واستبعاد ما لا يمتثل لرؤية المستعمِر.» (إبراهيم، 2011، صفحة 241)، وكما يلاحظ "روبرت يونغ" فإنّ الكتابة: «عن تواريخ دول القارات الثّلاث، قارات الجنوب الثّلاث، تعني الكتابة عن هفوات التّاريخ نفسه. عن الفضاءات التي طمسها البياض القاسي الذي لا يعرف الرّحمة.» (يونغ، 2003، صفحة 07)

ثمّ إنّ كلّ كتابة تاريخيّة تنهض على القراءة والتفسير، والكتابة والتأويل؛ قراءة الأرشيفات والوثائق، ومحاولة بناء أحداث الماضي ووقائعه، وتفسيرها وفهمها، في ضوء معطيات هذه الوثائق والأرشيفات، ثمّ أخيراً الانتهاء إلى تدوين التواريخ العامّة والكلّية، اعتماداً على تأويلات محدّدة لهذه الأحداث والوقائع؛ تفضي إلى استنتاج واستخلاص العبر والحكم، التي تفيد في فهم الحاضر أيضاً. وإذا كانت الكتابة التّاريخيّة محكومة بهذه الاستراتيجيات، ومؤطّرة بهذه الغايات، فلا شك في أنّها تصدر عن موقع محدّد، وعن إطار مرجعيّ معيّن؛ يضفي عليها تحيّزاً لرؤية ومنظور خاصّين.

وإذا كان مدار اشتغال التّاريخ على الذّاكرة؛ فإنّ هذه الأخيرة كثيراً ما أسيء استعمالها، أو تمّ تسييسها، والتّلاعب بها. ولئن كانت الذّاكرة، وفق ما يرى "بول ريكور"، تندرج: «ضمن تكوين الهويّة من خلال الوظيفة السّردية.» (ريكور، 2009، صفحة 142، 143)، وأنّ أدلجتها والتّلاعب بها أمرٌ ممكن، بل حاصلٌ (ريكور، 2009، صفحة 143)؛ فإنّ ذلك ما يجعل مسعى التّاريخ في إعادة بنائه للأحداث، ورصفه للوقائع، وتشييده لممالك الماضي وقلاع، ورسمه لحدود الامبراطوريات، تعويلاً على

الذّاكرة، يلجأ إلى أشكال من الانتقاء والطّمس، والتّركيب والمجانسة، والتّلاعب والاستعمال المسيّس للذّاكرة، ولعلّ ذلك يتمّ وفق استراتيجيّة مزدوجة: «استراتيجيّة ماكرة تقوم مباشرة على استراتيجيّة للنّسيان بقدر ما تقوم على إعادة التذكّر.» (ريكور، 2009، صفحة 143) كما يقول ريكور. ولعلّ استراتيجيات التّركيب والانتقاء، والمجانسة، كانت تندرج ضمن استراتيجيّة أكثر شموليّة، هي الإنشاء، أو الاختراع والأسطرة، التي كانت ترتبط بمصالح الامبراطوريّة، وسياسات الهويّة؛ فـ: «اختلاق التّراث هو منهج لاستخدام الذّاكرة الجمعيّة بشكل انتقائي من خلال التّلاعب بقطع معيّنةٍ من الماضي القومي، وذلك بطمس بعضها وإبراز بعضها الآخر بأسلوب توظيفي بكلّ ما في الكلمة من معنى. ومن هنا، ليست الذّاكرة بالضّرورة ذاكرة أصيلة، بل هي على الأصح، ذاكرة نفعيّة.» (سعيد، 2001، صفحة 95)

03: المعرفة التّاريخيّة والمركزيّة الغربيّة

إنّ إثارة مسألة تحيّز السّرديّة التّاريخيّة، في علاقتها المباشرة بمسألة الهوية والقوميّة، وطرائق وكيفيات تشكّلهما؛ تحيل كما يرى إدوارد سعيد على: «الكيفيّة التي تتشكّل بها ذكريات الماضي وفقاً لفكرة محدّدة عمّا "نحن"، وبالتّالي، عمّا "هم" عليه فعليّاً. فالهويّة القوميّة متورّطة باستمرار في السّرد؛ سرد ماضي الأمّة، وسرد أجدادها المؤسّسين، وسرد الوثائق، والوقائع الأصليّة، وغيرها. ولكن لمْ يسلّم أبداً بهذا السّرد على أنّه مجرّد مسألة قصّ محايد للوقائع.» (سعيد، 2001، صفحة 94)، إذْ لا شكّ في أنّ المؤرّخ كان ينقّب عن المندس والمتخفّي في طبقات الآثار وأغوار النصوص التّاريخيّة؛ متّكئاً على منظور معيّن، ورؤية محدّدة، ومعوّلاً على التّأويل، بما يفتح الباب واسعاً أمام التحويرات والتحيّزات، والاستعمال المؤدلج للذّاكرة.

ويبدو أنّ السّرديّة الأوروبيّة/ الغربيّة للتّاريخ، وللوقائع التّاريخيّة، قد عمدت إلى التدخّل والتّلاعب بسيرورة الأحداث والوقائع، وبأهمّيتها، وبتعالقاتها، ومن ثمّ تأويلاتها، وأيضاً بمركزيّة الشّخصيات، ومحوريّة أدوارها، علاوة على أنّه تمّ النظر إلى هذه الوقائع وفهمها، في إطار من الافتراضات التّاريخيّة والثّقافيّة الغربيّة؛ وبذلك فقد عوّلت هذه السّرديّة على أشكال من الاختلاق والتّلفيق طالت عمليات تركيب، وإنشاء/ اختراع الذّاكرة والتّاريخ، مثلما طالت سياساتهما واستعمالاتهما. ومثلما يلاحظ "إدوارد سعيد"، فقد كانت دراسة «التّاريخ، سواء أكان في المدرسة أم في الجامعة... هي أبعد ما تكون عن الدّراسة الحياديّة في الوقائع والحقائق الأساسيّة؛ بل إنّها، وإلى حدّ كبير، مسعى قومي يقوم على التّسليم بضرورة أن تبني فهم المطّلع وولاءه المروم للوطن، والإرث، والمعتقد.» (سعيد، 2001، صفحة 93)

وطالما أنّ الغرب قد أتيحت له ظروف ملائمة، وسياقات محدّدة، أدّت إلى هيمنته على بقيّة العوالم، بما جعله: «مالكاً للأرض بالقوّة، فهو المانح الأخير للمعاني والمقاصد والشّرعيات، ونتج عن ذلك تزييف المسار التّاريخي للجماعات الأصليّة، ووصفٌ ملفّقٌ لأحداث الماضي... ونشأت كتابةٌ استعماريّة مركزها الحواضر الغربيّة، وفي حافاتها البعيدة رميت الشّعوب الأصليّة خاملةً ومستبعدةً وتابعةً، وموضوعاً للحكم... فمحيت تواريخها الأصليّة، واقتُرِحَت لها تواريخٌ مغايرةٌ تستجيب للرؤية الاستعماريّة.» (إبراهيم، 2011، صفحة 242) هذه القوّة، والهيمنة التي أوتيها الغرب، هي التي جعلته في المحصّلة يضطلع بمهمّة كتابة التّاريخ، التي ستتمُّ بطريقة شديدة الانتقائيّة ودقيقة الاصطفاء، وتقصي ما لا يتوافق مع الرّؤية الاستعمارية، علاوة على أنّها تعفي نفسها كلّيا من عناء الاهتمام بحيوية تواريخ هذه العوالم، وخصوصيتها، فضلاً عن الالتفات إلى ضرورة صدور الكتابة التّاريخيّة عن روح علميّة، وموضوعيّة.

ولئنْ كان مجال بحث التّاريخ هو الوقائع والأحداث؛ فإنّ أداته في سرد هذه الأحداث والوقائع، وفي إعادة بنائها، وتركيبها هي اللّغة، وعليه فمدار العمليّة التّاريخيّة قائم على "التّمثيل"، تمثيل الوقائع والأحداث والشّخصيات باللّغة، وعبر وساطتها؛ وإذا كانت: «اللّغة تبني العالم، إذاً فالهوامش هي المركز، ويمكن أن تبني العالم وفق نمط مختلف من العادات والتوقّعات والخبرات.» (أشكروفت، الرد بالكتابة، 2006، صفحة 157) وضمن هذا الإطار تتنزّل دعوة "ليوطار" إلى ضرورة: «تبنّي وجهة

نظر جزئيّة إقليميّة، لا كلّية شاملة، في ما يتعلّق بقضايا التّاريخ والسّياسة واللّغة والفن والمجتمع.» (ليشته، 2008، صفحة 498) فوفقاً لتصوّر "ليوطار"، غالباً ما انتهت كلّ: «فكرة كلّية شاملة -سواء أكانت الإنسانيّة أو الحرّية أو التقدّم أو العدالة أو القانون أو الجمال أو المجتمع أو اللّغة- بإمكانها أن تتطابق مع موضوع واقعي فإنّ محاولة الرّبط بين الكلّي والموضوع والواقعي، يمكنها فقط أن تؤدّي إلى النّزعة الشموليّة الاستبداديّة *(totalitarianism)* وما يتبعها من استبعاد للآخر أو للآخريّة.» (ليشته، 2008، صفحة 500)

وإذا كان خطاب/ سرديّة التّاريخ، تعوّل -من بين ما تعوّل عليه- على الوصف؛ فإنّ "الوصف" مثلما يقول إعجاز أحمد: «ليس حياديّا أيديولوجيّا أو معرفيّاً قطّ؛ أنْ "تَصِفَ" يعني أنْ تحدّد محلّ المعنى، وأنْ تبني موضوع المعرفة، وأنْ تنتج معرفةً لابدّ من أنْ تكون مقيّدةً إلى فعل البناء الوصفي ذاك. وعلى سبيل المثال، كثيراً ما كان " الوصف" مركزيّاً في خطابات الاستعمار، تلك الخطابات التي شيّدت آليّة توصيف مهولة -لأجسادنا وأفعال كلامنا وموائلنا وصراعاتنا ورغباتنا وسياساتنا ونشاطنا الاجتماعي والجنسي... مكّنتها من تصنيف الذّوات المستعمرة والسيّد عليها أيديولوجيّاً.» (أحمد، 2019، صفحة 146)

وبذلك فقد تأسّس العقل/ الخطاب التّاريخي، بما حوى من مزاعم وافتراضات تاريخيّة، على: «كلّ من الذّات والزّمن الغربيين، واللّذين يعدّان -في الحقيقة- ملكيةً حصريّة لأوروبا.» (دباشي، 2016، صفحة 45). ولعلّ تحيّز هذا العقل التّاريخي للإطار الغربي، وارتهانه للخلفيات والمرجعيات، ولأنماط الحياة، والخبرات الغربيّة، ومحدودية خبرته وإحاطته بتجارب وخبرات الآخر، وتعاليه عليها، رغم تدثّره بهالة "العلميّة" و"الموضوعيّة" و"الإنسانيّة"؛ قد كان سبباً في تهاوي نزعته العالمية، وتَبَدُّدِ سعيه إلى افتراض تاريخ موحّد.

إنّ التغييرات التّاريخيّة، والتباينات الجغرافية، والمناخات المختلفة، في العوالم الأخرى خارج أوروبا من دون شكّ تفرض ضرورة الانزياح عن خطاطة التقدّم التّاريخي، كما تمّت بلورتها اتّكاء على الزّمن الغربي، وخصوصيّة لحظته التّاريخيّة، والعدول عنها إلى تصوّرات وتفسيرات تاريخيّة، تنسجم مع السّيرورات والتحوّلات التّاريخيّة الخاصّة بهذه المناطق من العالم، وليس فهم وتأويل هذه التحوّلات والسّيرورات وفق منطق التّاريخ الغربي. ولمّا كان البشر خارج القارّة الأوروبيّة بعبارة حميد دبّاشي: « يمتلكون القدرة الفطريّة على التفكير خارج زنازين النّزعة الأوروبيّة.» (دباشي، 2016، صفحة 51)؛ فإنّ لهم تواريخهم الخاصّة، كما بمقدورهم بكلّ تأكيد صناعتها.

ولا شك في أنّ طرائق الاشتغال في حقل "التّاريخ"، ومناهجه ومنظوراته، قد عرفت في الفترة الأخيرة مناقشات واسعة، وجدالات حادّة، وتعرّضت لمراجعات وانتقادات معمّقة، لاسيّما مع النظريّة ما بعد الكولونيالية، التي شكّكت في السّردية التّاريخية، وتناولتها بوصفها واحدة من السّرديات/ المرويات الكبرى؛ كاشفةً عن تحوّلها إلى ميثولوجيا بيضاء، ومنتهيةً إلى تقويض ما ارتبط بها من ميتافيزيقا، وما يخترقها من استيهامات.

ولعلّ الأسماء الفاعلة ضمن تيّار ما بعد الكولونياليّة، والمفكّرين المنتمين إليه -على اختلاف أطيافهم ومرجعياتهم- هم من يعزى لهم الفضل في: «إعادة رسم خطوط مغامرة "دراسات التّابع" وبالتّشجيع... على قراءة بديلة لتاريخ الشّعوب غير الغربيّة.» (بريسون، 2019، صفحة 319)، وخلخلة ذلك المنظور السّائد/ المهيمن والإقصائي، ودحض هذه الافتراضات التي نادراً ما أمكن تخطّيها، والفكاك من إسارها، والانعتاق من هيمنتها.

04: الشّعرُ مقاومةً/ المقاومةُ شعراً

تنتصب القصيدة بوصفها إذا جاز لنا اقتباس عبارة إعجاز أحمد: «ترياقاً ضدّ المركزيّة الإثنيّة وحسر البصر الثّقافي اللّذين تعانيهما العلوم الإنسانيّة.» (أحمد، 2019، صفحة 142) وكثير من المعارف الغربيّة.

يمكن القول بأنّ قصيدة "فليحضر التّاريخ"، لمريد البرغوثي، والدّيوان بكامله، يندرج ضمن خطاب المقاومة، والاحتجاج على مختلف أشكال القمع والإبادة، والإقصاء والتهميش، ويهدف إلى نبذ الاذعان، واختراق الصّمت وكسر الطّوق المضروب على عنق الآخر/ المهمّش، وهي: «تنخرط صراحةً في مقاومة النّظام القمعي بغية تجنّب الإذعان تجنّباً كاملاً.» (أشكروفت، الرد بالكتابة، 2006، صفحة 148)؛ ناسفةً بذلك فرضيّة حيادية الأدب واستسلامه وانسحابه من معترك صراعات الإنسان، ومناطق النزاع، وأحياز الصّراع؛ هادفة إلى تحرير الخيال والمخيال -على حدّ سواء- من ربقة التصوّرات الغربيّة، ومن إسار المركزيّة الأوروبيّة.

ولأنّ السّردية التّاريخيّة -المتمركزة غربيّا- تنهض على التعميم والمجانسة والتّوحيد، وتنزع إلى الهيمنة، والاجهاز على غيرها من السّرديات، وفق آلية مزدوجة، تنتهج الإقصاء والاحتواء/ الاستحواذ على حدّ سواء؛ فلا غرابة إذن أنْ تكون المقاومة: «هي إتاحة الفرصة وفسح المجال لذلك الممكن، كي يضفي النّسبيّة على الإطلاق، والتغيّر على الثّبات، والشّكّ على اليقين.» (العالي، 2020، صفحة 88). ولمّا كتب التّاريخ من وجهة نظر المنتصر، وكان استجابة لرغبته، ورهن إشارة توجيهاته، فكان بالنتيجة يصمّ آذانه عن أصوات المقهورين، ويتنكّر لعذاباتهم، ويتعامى عن رؤيتهم، وبالتالي يسلبهم وجودهم، ويقذف بهم في هامش التّابع الغفل والأخرس؛ يقول مريد:

والحكايةُ هل تكون كما سيحكيها كتابكَ؟
أم سنحكيها كما شئنا
وتتركنا نكون رواة أنفُسِنا (البرغوثي، 2018، صفحة 25)

ويقول في موضع آخر؛ واصفاً أشكال استحواذ الرّواية الكولونيالية على مسرح التّاريخ، وإجهازها على غيرها من الأصوات/ الرّوايات:

أعِدِ الرّواية من جيوب لصوصِها
فروايةُ المظلوم تسرقُ كالرّغيف وكالمخازن
لا تُعَرِّفنا كأضدادٍ لخصمٍ أنت قد صادقتَهُ
وكأنّنا من قبله غيم تبدّد أو ظلالٌ أو ظنونْ
وكأنّنا من قبله شبحٌ بلا جسدٍ (البرغوثي، 2018، صفحة 25، 26)

ترى هل كانت هذه المجتمعات خرساء، أمْ أنّ التّاريخ الكولونيالي هو الذي يعاني من: «الصّمم المقصود تجاه الصّوت المحلّي حيث يمكن سماعه.» (لومبا، 2007، صفحة 234) ففي النّهاية: «الأرشيف الاستعماري كما الأرشيف الأصلاني ليسا كريمين في حفظ الحكايات التي حُكِيَت.» (لومبا، 2007، صفحة 235)

وإذا كنّا نتّفق مع "كارلو غينسبورغ" في أنّ التّاريخ اليوم تجاوز كثيراً من عثرات الماضي، وأنّ المؤرّخين شرعوا في الاهتمام بالتّواريخ الجزئيّة، وكتابة تاريخ الطبقات الخاضعة وأفرادها، وثقافاتها؛ فالملاحظ أنّ المؤرّخين لم يلتفتوا إلى هذه التّواريخ إلاّ مؤخّراً؛ إذْ: «يمكن اتّهام المؤرخين القدماء بأنهم لم يلتفتوا إلى ما يتعدى "أعمال الملوك العظيمة"، لكن هذا لم يعد صحيحاً البتّة هذه الأيام؛ ذلك أنّ المؤرخين اليوم يبدون اهتماماً متزايداً بما سكت عنه أسلافهم أو أهملوه أو تجاهلوه.» (غينسبورغ، 2018، صفحة 112). كما أنّ هذا الأمر لا يصدق على تواريخ الشّعوب المستعمَرة، والثّقافات الأخرى، إلاّ قليلاً، ذلك أنّ هذه الشّعوب عانت من اضطهادٍ مزوجٍ، ونسيانٍ مضاعفٍ؛ استعماري وطبقي، وقلّما عنيت المراجعات التّاريخيّة ببيان مساوئ الأمْرَيْن، واستجلاء فداحتهما.

إنّ الصّمت، والتهميش والعمى الذي يهيمن على التّاريخ/ التّواريخ الكولونياليّة؛ التي دأبت على رَمْيِ الهوامش والأطراف بالخمول والرّكود، ودَمْغِ تواريخها بالرّتابة والفتور، والافتقار إلى الحيوية والنّشاط، والتّركيبيّة والتّعقيد -التي هي سمات تاريخ الأمم/ المجتمعات الحديثة والمتمدّنة، أو الغربيّة-؛ تجري مجابهته في القصيدة بسرد سلسلة/ متوالية من الأفعال التي تؤكّد على ديناميكيّة الحياة، وخصوبتها، وحيوية التجربة، وتوتّراتها؛ يقول الشّاعر:

ومثلك لا يرى جسديّة الأجساد إنْ حزنت وإنْ ضحكت

وإنْ ضجرتْ وإنْ فجرتْ وإنْ أرقتْ وإنْ سهرتْ وإنْ

رقّت وإن عبست وإن أملت وإن يئست وإن عقلت

وإن جنّت وإن أجراسها رنّت بقصّة حبّ انكسرت وإن

ضاقت بها الدّنيا وإن فرجت وإن خرجت لقاتلها وما

فزعت

وأنت تُنِيمُ كلّ صفاتها في نصفِ سطرٍ

ثمّ ترحل في مدرّعة لتتقن جدول الأرقام (البرغوثي، 2018، صفحة 26)

فالشّاعر يعمد إلى خلخلة وإزاحة السّردية البيضاء القاسية، والمهيمنة، التي تتنكّر للتّواريخ الأخرى رغم زخمها وديناميكيّتها، وحيوية أحداثها، وتنوّع أفعالها وانفعالاتها. وإذا كان الغرب قد اصطنع: «تاريخاً خاصّاً به، ومميّزاً له عن غيره، بما فيه الادّعاء بخصائص عرقيّة محدّدة، وفيما يخصّ غيره، فقد ادّعى ما يناقض ذلك بهدف تسويغ نزعة التّوسّع والاحتلال التي لازمت تاريخه منذ عصر النّهضة.» (إبراهيم، المركزيّة الغربيّة، 1997، صفحة 34)؛ فإنّ القصيدة تعنى باستجلاء وبيان المواقع والبقع العمياء في السّردية التّاريخيّة، ونقدها، قدر عنايتها باستبناء سردية بديلة تسعى لشقّ مسار جديد في كتابة التّاريخ، بإعادة الاعتبار للتّواريخ المنسيّة، والاعلاء من شأن المهمّشين والخاضعين، وتعزيز حضورهم.

وتحرص القصيدة في تصويرها -أو بالأحرى تمثيلها- للذّات على ألاّ تتمرأى هذه الذّات بملامح سكونيّة، أو متجانسة أو رومنسيّة؛ بل تحاول التقاط حالات التحوّل والصّيرورة والارتباك، والتّركيبيّة والتعقيد؛ سعياً إلى نقض الصّور والكليشهات النمطيّة، وتقويض النماذج الاختزاليّة التي دأب التّاريخ والمخيال الكولونيالي على رسمها وصياغتها لها. ولعلّ هذا المسعى في القصيدة يلتقي/ يتقاطع مع ما يذهب إليه مفكّرو ما بعد الاستعمار، من أنّ: «الأشخاص ليسوا جواهر ثابتة بل يتشكّلون خطابيّاً. الهويّات والذّوات البشريّة متقلّبة ومتشظّية.» (لومبا، 2007، صفحة 232)

وإذا كانت كتابة التّاريخ من منظور غربي، قد هيمنت عليها استراتيجيات الدّمج والاحتواء، والمجانسة والتوحيد؛ فإنّ محاولة الشّاعر، تسعى إلى إرساء وتجذير رؤية/ منظور قائم على التّعدّد في كتابة التّاريخ، لا على الانسجام والتّوافق، أو التّطابق بين التّواريخ الإنسانيّة؛ يقول:

لسنا نشرةَ الأخبارِ

بل لسنا مجرَّدَ "خصمهم"

بل نحن "نحن"

لنا صفات قبل أنْ يصلوا، وبعد رحيلهمْ.

ونصيبُ أحياناً ونخطئُ

أو يقال لنا انتهيتُمْ، ثمّ تبدأ. (البرغوثي، 2018، صفحة 26، 27)

ويهدف إعادة التّوازن لابدّ من خلخلة هذه المركزيات وتفكيكها، وهدم أوهامها، وإعادة كتابة تاريخ الأطراف بأشكال تخالف وتنتقد رؤية العالم التي تتّخذ من أوروبا/ الغرب مركزا أو محورا لها، ودحض كثير من الافتراضات المركزيّة والعرقيّة التي يقوم عليها جزء كبير من المعرفة والثّقافة الأوروبيّة، أو بعبارة موجزة نقض التّراث الكولونيالي. ولأنّ التّاريخ: «هو مجال العنف والحرب؛ فهو بمثابة شكل مختلف يجري به الاستيلاء على الآخر داخل الذّات. ويرى الآخر أنّه لكي يظلّ آخر يجب عليه ألاّ يستمد دلالته من التّاريخ، بل لابدّ أن يكون له زمنٌ منفصلٌ يختلف عن الزّمن التّاريخي.» (يونغ، 2003، صفحة 74)؛ يقول مريد، معبّراً عن تبرّمه من تحيّز التواريخ الكولونيالية للمنظور الغربي، وانبثاقها عن أساطيره المؤسّسة، والمخترقة بنزعة التمركز الأوروبيّ، رغم ادّعاءاتها وتدثّرها بهالة الموضوعيّة والحياد والعلمية، ونزوعها إلى الاختزال، والتوحيد والمجانسة، والتنكّر لفرادة الآخر:

لا تضع نعتاً لتلصقنا عليه

جيّداً أو سيّئاً فالنّعت رأي

لا تقل كانوا "جميعاً"، أيَّ شيءٍ

نحن أدرى من نكونْ. (البرغوثي، 2018، صفحة 27)

05: القصيدة: من مساءلة المخيال إلى تحرير الخيال

تعجّ القصيدة بالتّفاصيل الصّغيرة، والمشاهد اليوميّة، وحكايات البسطاء، وسِيَر المنسيين، وذكريات المغيّبين، والمقصيّين من متن الحكاية. وتستبدّ هذه التفاصيل والذّكريات، والأمكنة والحكايات بالذّاكرة، وتستحوذ عليها؛ أملا في استبناء/ إنشاء السّرديّة/ التّاريخ المطموس والمغيّب، وتوقاً إلى: «استعادة تواريخ ووجهات نظر النّاس المهمّشين، سواء كانوا نساء، أو غير بيض، أو غير أوروبيين، أو الطّبقات الدّنيا والفئات المقهورة.» (لومبا، 2007، صفحة 231)؛ يقول مريد:

ستَرى هنا أمّاً تمشّطُ شعرَ طفلتِها

لترسلَها إلى جرسِ الصّباحِ المدرسيِّ

ترنُّ حسناً في حديقة عمرها، وترنُّ،

لا أحداثَ، لا جنرالَ، لا آثارَ مجزرةٍ،

فقط أمٌّ مع ابنتها

فدوّنْ مشطها وجديلة البنت الصّغيرة

في دفاترِكَ التي

انشغلت بأحذيةِ الممالكِ عن وجوه النّاسِ. (البرغوثي، 2018، صفحة 19)

وتتجذّر القصيدة ضمن مسعى مقاومة عمى التّاريخ، وإجباره على الاعتراف بالوقائع التي دأب على إنكارها، والعناية بالتفاصيل التي اعتاد إهمالها، ودفعه إلى مراجعة التّقاليد التي لطالما نهض معتدّا بها، ومرتكزا على مقولاتها، ومحتكماً لمنطقها، ومحاولة نقض هيمنة تقليد محدّد في كتابة التّاريخ، ونقد الاحتكام إلى منظور أحادي ومهيمن في الكتابة التّاريخيّة، وفضح وتعرية ما يعجّ به التّاريخ، والنصوص التّاريخيّة من أساطير واستيهامات، وما تستبطنه من صور نمطيّة، وكليشهات؛ يقول مريد:

سأجُرُّه بيدي إلى غرفِ المعيشةِ بينَنا

وأُديرُ سهرتَه أنا

ليرى لأوّلِ مرّةٍ ولداً له وجهٌ، له صوتٌ

له جسدٌ حقيقيٌّ، له اسمٌ ثلاثيٌّ

يمارس يومَه العاديَّ بين يديهِ،

سوف أهيّئُ الأقلامَ والأوراقَ:

أكتبُ ما ترَى. (البرغوثي، 2018، صفحة 17، 18)

فالسّجلات التاريخيّة حافلة بأشكال التمركز والإقصاء والتهميش، ومخترقة بأشكال العمى والصمم، وسوء الفهم؛ يقول مريد:

فليحضرِ التّاريخُ فوراً

وليلغِ موعدَه مع الحرب التي ستجيءُ أو

مع أيّ سلمٍ مفترضْ

ومع القضايا العالقات بحبره وحرابهِ (البرغوثي، 2018، صفحة 17)

وإذا كان التّاريخ قصّةً كتبت من وجه نظر الغالب، وأقصت قصصاً أخرى وطمستها، وتنكّرت لها، أو هو وفق ما يرى "روبرت يونغ": «أعظم أساطير الغرب.» (يونغ، 2003، صفحة 09)، فلا تملك القصيدة غير مجابهة هذا التّاريخ الذي يغلق أعينه ويصمّ آذانه، وتعمل على شحذ الذّاكرة لمقاومة النسيان الطّاغي؛ يقول الشّاعر:

سترى انتظاري

لا لمعجزة،

(فإنّ المعجزاتِ فضيحةٌ للعقل

لا لتفاهة الجنّيِّ والمصباح،

(هذا الكامل المنفوخ أعجز من هشاشتنا)

ولا للنّصر في غزو وراء البحر، (إنّي لا بوارجَ لي)

ولكنّي انتظرت هنا، طويلاً،

بين جدراني البسيطةِ

فاكتب الآن انتظاري.

قل هنا رجلٌ يقيم بالانتظار

ولست أدري ما به. (البرغوثي، 2018، صفحة 18)

ومن خلال مجابهة التنكّر، والتعامي عن هذا الوجود/ الواقع، الحيّ والنّابض؛ تسعى القصيدة لإرساء تقاليد كتابة تاريخيّة تنهض على الإصغاء لأصوات المنسيّن في السّردية الكولونياليّة؛ كتابة تاريخيّة مختلفة في استراتيجيّاتها ومصادرها، كما في أهدافها وغاياتها، عن السّرديّة البيضاء المهيمنة. ولعلّ ذلك كان يقتضي -من بين ما يقتضيه- فضح الصّدوع، والفواصل والفجوات، والفراغات والانقطاعات أيضاً، التي تخترق نسيج المرويات والوثائق والأرشيفات التّاريخيّة؛ يقول الشّاعر:

صوّرْ ياسمينتَها الوحيدةَ فوقَ دفترِها

ورائحةَ الصّباحِ

على طريقِ السَّروِ والنَّحوِ المبسَّطِ

ثمَّ تابع وقعَ خطوتِها على حذرِ الرّصيفِ

وذعرَ جدّتِها من الأخبارِ (البرغوثي، 2018، صفحة 19)

في سبيل مجابهة غطرسة وتمركز السّرديّة الكولونياليّة، وخطابها المتعالي؛ تلوذ الذّات برصيدٍ زاخرٍ من الأحداث والذّكريات والتّفاصيل والمرويات، والعناصر التي تشكّل انتماء الإنسان وتحدّد ملامح هويّته. وتتضافر ذكريات المكان والأجداد/ الأسلاف والطّفولة مشكّلة مزيجاً فسيفسائيّاً، وسيمفونيّة متناغمة؛ معبّرةً عن منابع الهويّة، والأصول المشتركة، والحكاية المؤسّسة، وتغدو هذه العناصر ركائز حيويّة وفعّالة وجوهريّة في تحديد هويّة الذّات.

ولعلّ هذه الرّؤية التي تصدر عنها القصيدة، تتقاطع مع استراتيجيّة "دراسات ما بعد الاستعمار"، و"دراسات التّابع"، التي كانت منهجيّتها تعوّل على استحضار: «فكرة "الشّعب" وتوضّح أنّ الكتابة التّاريخيّة التقليدية تفشل في أنْ تعترف، ناهيك عنْ أنْ تؤوّل، الإسهامات التي قام بها الشّعب أو النّاس اعتماداً على أنفسهم؛ أي بعيداً عن النّخبة.» (نوريس، 2005، صفحة 342، ج 09)، وتنتهج تفكيك الخطاب التاريخي، وتقويض خطاطة موضوعاته المركزية، والكشف عمّا ينطوي عليه هذا الخطاب من ميثولوجيا، وما يضمره من تمركز وتعالي عن هموم الذّات والأفراد والطّبقات. وكانت تناضل في سبيل تمثيل صوت المهمّشين، وتشييد خطاب مضاد واستبناء سرديّة بديلة، والمقاومة والنّضال في سبيل استعادة قدرة وحقّ هذه الطّبقات، في تمثيل نفسها بنفسها؛ في هذا الإطار، وضمن هذه الرّؤية، يتنزّل قول الشّاعر:

وكيف تركضُ لهفةُ امرأةٍ لفتح البابِ
ثمّ تعود خائبةً،
تأخَّرَ،
ثمّ تصبرُ ساعةً أخرى،
وتصبرُ ليلةً أخرى:
أيعقلُ أنَّ زلزالاً من الصّبواتِ والشّهوات فيها
لا مكانَ لهُ لديك؟ (البرغوثي، 2018، صفحة 23)

ففي سبيل تقويض التقليد المهيمن على كتابة التّاريخ، بالتّركيز على الأحداث الجسيمة والعظيمة، والبطولات والشّخصيات المركزيّة، والسّعي إلى إرساء: «قطيعة مع التركيز النخبوي الذي يتّصف به التّاريخ الرّسمي...» (نوريس، 2005، صفحة 342، ج 09)؛ تركّز القصيدة على المعيش اليومي، والهواجس الذّاتية، والتعاطي مع التّجارب الفرديّة والخبرات اليوميّة، والاحتفاء بعواطف الذّات وأحاسيسها، ورغائبها، في عنفوانها، وفي تقلّبات أمزجتها، وتصويرها بطريقة تبثّ فيها الحياة، وتبعدها عن الوصف الاثنوجرافي الجامد، الذي يحنّطها، ويفرغها من الحياة، وينزع عنها ديناميكيّتها. يقول مريد:

ثمّ دوِّنْ حيرة الولدينِ بعد النّظرة الأولى
ودوِّنْ رجفةَ الشّفتين عند اللّمسة الأولى،
ودوّن خشيَةَ الجسدينِ أنْ
يتسلّلَ التّاريخُ، يا تاريخُ، بينهما
فتجفلُ وردتانِ على المخدّة منك، واعرفْ
اسمَ بِكْرِهِما الذي اختاراه بعد مناقشاتٍ
مع جميع الأهل،
سمعُكَ ليس يألفُها
ومثلكَ ليس يعرفُها

فلسنا كالرّياضيات، لا تجْمَعُ ولا تطْرَحْ (البرغوثي، 2018، صفحة 24)

وبذلك تعمل القصيدة على تقويض السّردية التّاريخيّة المتمركزة حول ذاتها، والمتشرنقة على نفسها، بموضوعاتها المنضّدة، وخطاطاتها الجاهزة، وشخصياتها النمطيّة، وسيرورة أحداثها المنطقية إلى الحدّ الذي سنّ فرضيّة (التّاريخ يعيد نفسه). فتعمد القصيدة إلى مساءلة الحدود القارة بين المعارف والفنون، التي دأب تقليدٌ غربيٌّ نمطيٌّ على إرسائها، وترسيمها، والكشف عن الرؤية التراتبية، والهرمية التي تستند إليها تلك الحدود، وتنتهي إلى تجذيرها، وفضح الاستيهامات والتحيزات والتمركزات التي تستبطنها تلك الحدود والتمايزات بين الاختصاصات، والتي تتشكّل من خلال إضبارة من الثّنائيات التي تختزل الخصائص المائزة لهذه التخصّصات، من مثل ثنائيات: العلم/ الفن، العلوم الدقيقة والتجريبيّة/ العلوم الإنسانيّة والاجتماعيّة، الموضوعيّة/ الذّاتية، الحياد/ التحيّز، اليقينيّة/ النسبيّة، وغيرها من الثّنائيات التي تضمر رؤية تراتبيّة كامنة في تقسيم هذه الفروع المعرفيّة، ورسم خطاطة الاختصاصات؛ يقول الشّاعر:

لا تندهشْ،

واكتب كذلك خوفنا إنْ رنَّ هاتفنا

ولا تتكهّن الأسبابَ، أنت مدبّر الأسبابِ، فاكتبْ

أنّنا نخشى رنين الهاتف اللّيليّ،

هل فكّرت يوماً أنّ هذا لمْ يدوّن في كتابكَ؟

أمْ تراه من اختصاص الشّعر والشّعراء؟

لا يا سيّدي، فاكْتُبْهُ،

وليكن اختصاصَكَ منذ هذا اليوم

فالدّنيا هواجسُنا البسيطةُ لا طبولُكَ

أو كبائرُكَ التي أدمنتَ صُحْبَتَها (البرغوثي، 2018، صفحة 20)

وإذا كان ديدن "علم التّاريخ"، هو أنْ يرحل: «إلى غرف الماضي المظلمة، منقّباً عن آثار الإنسان في ماضٍ تحرّر من التّأويل الأسطوري.» (درّاج، الرواية وتأويل التّاريخ، 2004، صفحة 05)؛ فإنّ فعل التّأريخ الذي يضطلع به الشّاعر هنا، يتمرّد على سنن وأعراف الكتابة التّاريخيّة، ويضرب عرض الحائط بتقاليدها، فلا يعوّل على ضمير الغائب، والفعل الماضي في سرد الأحداث؛ بل يراهن على تفاصيل الحاضر، وأحداثه ووقائعه، غير عابئٍ بالماضي وبطولاته وشخصياته.

يتخذ نقد انهمام التّاريخ بالماضي، وإهماله للحاضر، من المقابلة بين صيغتين زمنيتين للأفعال، هما الأفعال الماضية، أو التي قلب زمنها إلى الماضي، وأفعال الحاضر -أو ما دلّ على الحاضر والمستقبل من صيغ وأفعال- استراتيجيّةً لكشف انغماس التّاريخ في الأحداث والوقائع الماضية، وانشغاله بالأمم السّالفة، والمرويات القديمة؛ وهذا يتجلى من خلال الأفعال: (لمْ تُؤرّخْ/ أما سَئِمْتَ) في دلالتهما على التقليد التّاريخي السّائد، والأفعال: (تستطيعُ/ إذا أَرَدْتَ/ أَصْغِ) في ارتباطها بالمقترح الشّعري الذي يسعى لزحزحة التقليد التّاريخي المهيمن، وإعادة الاعتبار للحاضر المهدر في السّردية التّاريخيّة، والذي تعكسه، وتعبّر عنه متوالية الأفعال في بقيّة المقطوعة الآتية، وهي: (يخطو/ يمسّهما/ ليساعد/ أنْ يصلا)؛ يقول مريد:

لم تؤرّخْ مثلَ هذا ذات يومٍ

تستطيع إذا أردتَ

أما سئمتَ أوامرَ الضّبّاطِ؟

أصغِ لقصّةٍ من جدّةٍ لحفيدتها

والنّومُ يخطو حافياً حذراً

يمَسُّهُما بطرف ردائهِ

ليساعد الإثنينِ

أن يصلا بلادَ الصّبحِ مرتاحينِ. (البرغوثي، 2018، صفحة 22)

وإذا كان المؤرّخ، وفق ما يرى "فيصل درّاج": «يقول قولاً سلطويّاً "نافعاً" ولا يتقصّى "الصّحيح"، يهمّش تاريخ المستضعفين ويوغل في التهميش إلى تخوم التزوير وإعدام الحقيقة.» (درّاج، الرواية وتأويل التّاريخ، 2004، صفحة 05، 06)؛ فالحكاية البديلة تنهض على سرد التفاصيل البسيطة، وتفرد فصولها للأحداث الشّخصية، والمشاعر والأحاسيس الفرديّة، وتكتنز بمحكيّات الذّات، وتحتفي بالعفوي والطّفولي، والشّعري، والحالم، والشّهواني، وغير العقلاني، وتتجافى عن الكليشهات والخطاطات/ الترسيمات، التي دأبت التّواريخ الرّسميّة والمؤسّساتيّة على فرضها؛ يقول مريد:

دوّنْ ما جرى للقلبِ،

دوّنْ ما جرى في القلب

كفَّ عن التّمَشّي في حداد النّاس

تحصي الحزنَ إحصاءً كما التُّجّار

واكتبْ عن بناتٍ

لم يثرنَ فضولَكَ الدمويَّ يوماً

بلْ نثرنَ الحُبَّ حَبّاً في حقول خيالهنَّ (البرغوثي، 2018، صفحة 22، 23)

ففي القصيدة تركيز على تصوير انسياب الأفكار والمشاعر، وفيض الأحاسيس والتصوّرات الخاصّة بالبسطاء، والعناية برصد حميميّة علاقاتهم، وتدوين رزنامة متكاملة من عاداتهم ونشاطاتهم، كما آمالهم وطموحاتهم، وطرق تفكيرهم، ونواميس حَيَوَاتهم. وهذه السّردية الحبلى بعناصر الطّبيعة، وبتضاريس المكان (رائحة الصّباح، طريق السّرو، الحطّة البيضاء، المزارع، السّياج، الماء، القنوات، الخزامى، القرنفل، اللّوز،...)، والتي تركّز عنايتها على التفاصيل البسيطة (أمٌّ، ابنةٌ، جدّةٌ، مشطٌ، جديلةٌ، جرسٌ مدرسيٌّ، ياسمينةٌ، رصيفٌ، منديلٌ،...) تعكس نزوعاً إلى التجذّر في المكان، والاحتماء برموز ومقوّمات الهوّية، والتشبّث بالحكايات المحلّية والوطنيّة، في سبيل مجابهة أشكال التضليل والإيهام، والاختلاق والتّلفيق. ففي ظلّ الإبادات العرقية والثّقافية، لا مفرّ من التشبّث بالجذور؛ وكما يسجّل إدوارد سعيد، فقد: «أصبح عصرنا عصر بحثٍ عن جذور؛ عصراً تحاول فيه الشّعوب أنْ تكشف في الذّاكرة الجمعيّة لعرقها وديانتها وطائفتها وأُسَرِها عن ماضٍ هو ماضيهم بقضّه وقضيضه، ماضٍ في مأمن عن نهب التّاريخ وفي مأمن عن حقبةٍ عاصفة.» (سعيد، 2001، صفحة 94)

وبذلك فنحن أمام كتابةٍ تعمل على مجابهة خطّ سير التّاريخ، وتنحرف عن مساراته المعتادة والنمطيّة، وتتمرّد على خطاطته المنضّدة، وتشمئز من رتابته، ومن روتينيّة أحداثه، وتنهض على التّشكيك في التّاريخ، وفي عقلانية مبدأه، وغايته، وبذلك فهي كتابة تقاوم الغياب والتغييب، وتهدف إلى إتمام الرّواية المنقوصة، ورأب تصدّعاتها؛ يقول مريد البرغوثي:

إجْلس وأجِّلْ وصفَ قائدِكَ المفضَّل،

مائلَ الكتفينِ

فوق خرائطِ الرّملِ التي في قبوه السّرّيِّ،

يرسم خطَّ تحريك الجنود الذّاهبينَ

بلا سؤالٍ (البرغوثي، 2018، صفحة 23)

وعبر تقويض الحكاية الكولونيالية، بنسف المرتكزات التي تنهض عليها، وخلخلة خطاطة تواريخها، وتفكيك تماسكها المفترض؛ تنتزع القصيدة وجودها، باستعادة صوتها، وكتابتها تاريخها، وتنتهي إلى صياغة هوّيتها الذّاتية، والتجذّر في أرض المقاومة، وتنحت "كوجيطو" المقاومة: (أنا أضحي إذن أنا موجود)؛ يقول مريد:

إذهب وفكّر في الذي شاهدتَ
لا تقدَحْ ولا تمْدَحْ ولا تشْفق علينا
لا تقل كانوا ضحايا
بل نضحّي كي نكون. (البرغوثي، 2018، صفحة 27)

06: خاتمة

وبذلك فقصيدة "فليحضر التّاريخ" لمريد البرغوثي، تعنى بكتابة التواريخ المنسيّة -غير الرّسمية-، وتدفع بها إلى الواجهة، وتعمل على تعزيز موقعها، ومركزة حضورها. وتنحت تاريخاً مضاداً للتاريخ المألوف والرّسمي، غربي التمركز، وكولونيالي المرجعيّة والمنظور. وتحاجج في سبيل تفنيد السّردية التّاريخيّة القائمة على تركيز الاهتمام على التّواريخ الغربيّة، والجمعيّة، والشّخصيات العامّة، في مقابل طمس حيويّة تواريخ الأمم الأخرى، وحجب الاسهامات الشّعبية والفرديّة، ونسيانها وإهمالها، وعدم الاحتفاء بها على أهمّيتها. فقد روّج: «الخطاب الاستعماريّ لفكرة تقدّم واحدة في التّاريخ الإنساني هي التّجربة الغربيّة، وجعلها مثالاً ينبغي أن يحتذى، فمسار التقدّم الغربي هو السّبيل الوحيد للتطوّر، وفكرة الاستمراريّة التّاريخيّة من الإغريق إلى الغرب الحديث، وضعت أمام العالم مقترحاً وحيداً للتطوّر هو المقترح الغربي، وكلّ مجتمع لا يأخذ بذلك سوف يظلّ خارج التّاريخ، فوقع تناسي تجارب المجتمعات الأخرى، ووصمت بالبدائيّة والتخلّف، ذلك أنّ التقدّم لا يأخذ معناه إلاّ من الوصف الغربي له.» (إبراهيم، التخيل التاريخي، السرد والإمبراطورية والتجربة الاستعمارية، 2011، صفحة 245)

والقصيدة في مساءلتها للتّاريخ، ونقدها للمنظور المهيمن عليه، تعوّل على آليةٍ مزدوجةٍ؛ فبقدر تركيزها على التعبير عن رؤيتها المغايرة وموقفها النقدي من استئثار التّاريخ بالأحداث الجليلة، والشّخصيات العظيمة؛ تعنى بمنح صوتٍ للمنسيين من الحكاية، والمسقطين من متنها؛ ذلك أنّ الإصغاء إلى أصوات التّابعين -وفق ما ترى آنيا لومبا- يقتضي الكشفَ عن الرّوايات التي حجبتها/ أقصتها السّرديات/ المرويات الكبرى. (لومبا، 2007، صفحة 239) وبذلك فهي تنطوي على نقد يطال الكيفيّة والشّكل اللّذين بهما كُتِب، ويُكْتَب التّاريخ، وتُفْرِد فضاءها لحكاية جديدة، خليقة بالذّكر، على الرغم من أنّ التّاريخ لطالما دأب على إنكارها وتهميشها، وخنقها، والحطّ من شأنها.

وتركّز القصيدة عنايتها على التصوّرات والأفكار والمشاعر الفرديّة، وتسلّط اهتمامها على الشّؤون الخاصّة، والمرويات الذّاتيّة. ولعلّ الغزارة المفرطة في التفاصيل، تعكس خصوبة وتنوّع، وحيويّة/ ديناميكيّة الحياة، والتّاريخ -ولاسيّما التّواريخ الجزئيّة/ الفرديّة والمحلّية- بما يَحُولُ دون محاولات اختزاله، والقفز على تعقيده وتركيبيّته، ويقف في وجه عميات تحريفه، وطمسه وتزويره.

إنّ الإقامة والتجذّر في المكان/ الفضاء، والاعتصام بهما، والتدثّر بعباءتهما، والصّمود والإصرار، الذي يعبّر عنه ذلك الالتصاق بالتراب، والتشبّث بالجذور، بقدر ما تعكس اهتماماً: «بتطوير أو استعادة علاقة فعّالة بين الذّات والمكان لتحديد الهوّية.» (أشكروفت، الرد بالكتابة، 2006، صفحة 27) بقدر ما تشكّل درعاً حصيناً لمجابهة أشكال الاقتلاع والمحو، والطّمس والتغييب الممنهجة في التّواريخ والمرويات الكولونياليّة؛ فعادةً ما: «يتطلّع النّاس الآن إلى هذه الذّاكرة المجدّدة، ولا سيّما في شكلها الجمعي، ليمنحوا أنفسهم هويةً متماسكةً وروايةً قوميّةً ومكانةً في العالم.» (سعيد، 2001، صفحة 96)

وإذا كان الشّعب الفلسطيني قد بقي: «في المنفى معتمداً بشكل خاصّ على الحكايات الوطنيّة ليحافظ على هويّته ووجوده.» (مجج، 2002، صفحة 173)؛ فإنّ إقامته في أرضه، ونضاله المستميت، وصموده الأبيّ، مشروطٌ بانتزاع حضوره في التّاريخ عبر استعادة صوته، ورواية حكايته، وكتابة تاريخه، حذواً بحذوٍ مع صناعة هذا التاريخ.

07: المصادروالمراجع:

(01): إدوارد سعيد. (2001). التلفيق، الذاكرة والمكان. مجلة الكرمل، 92-109.

(02): إعجاز أحمد. (2019). في النظرية: طبقات، أمم، آداب. قطر: المركز العربي للأبحاث ودراسة السياسات.

(03): آنيا لومبا. (2007). في نظريّة الاستعمار وما بعد الاستعمار الأدبيّة. سوريا: دار الحوار للنشر والتوزيع.

(04): بول ريكور. (2009). الذاكرة، التاريخ، النسيان. بيروت: دار الكتاب الجديد المتحدة.

(05): بيل أشكروفت. (2006). الرد بالكتابة. بيروت: المنظمة العربية للترجمة.

(06): بيل أشكروفت. (2010). دراسات ما بعد الكولونيالية، المفاهيم الرئيسية. القاهرة: المركز القومي للترجمة.

(07): توماس بريسون. (2019). انزياح المركزيّة الغربيّة. بيروت: مؤسسة الفكر العربي.

(08): تيري إيغلتون. (2002). مفهوم التّاريخ في الفكر ما بعد الحداثي: عرض ونقد. مجلة الكرمل، 45-63.

(09): جون ليشته. (2008). خمسون مفكرا أساسيا معاصرا. بيروت: المنظمة العربية للترجمة.

(10): حميد دباشي. (2016). هل يستطيع غير الأوروبي التفكير؟ إيطاليا: منشورات المتوسط.

(11): روبرت يونغ. (2003). أساطير بيضاء، كتابة التاريخ والغرب. القاهرة: المشروع القومي للترجمة.

(12): عبد الله إبراهيم. (1997). المركزيّة الغربيّة. بيروت: المركز الثقافي العربي.

(13): عبد الله إبراهيم. (2011). التخيل التاريخي، السرد والإمبراطورية والتجربة الاستعمارية. بيروت: المؤسسة العربية للدراسات والنشر.

(14): فيصل درّاج. (2002). التّاريخ وصعود الرّواية. مجلّة الكرمل، 138-166.

(15): فيصل درّاج. (2004). الرواية وتأويل التّاريخ. بيروت: المركز الثقافي العربي.

(16): كارلو غينسبورغ. (2018). الجبن والديدان: عالم طحّان من القرن السادس عشر. مجلّة أسطور، العدد 08 تموز/ يوليو 2018، 111-120.

(17): كريستوفر نوريس. (2005). موسوعة كمبريدج في النقد الأدبي. القاهرة: المشروع القومي للترجمة.

(18): ليزا سهير مجج. (2002). تقاطعات الأمّة والمجتمع والجنس في روايات النساء العربيّات. القاهرة: المشروع القومي للترجمة.

(19): مريد البرغوثي. (2018). استيقظ كي تحلم. بيروت: رياض الريس للكتب والنشر.

(20): هايدن وايت. (2016). شعريّة التاريخ. مجلة أسطور، العدد 04 تموز/ يوليو 2016، 127-158.